

الفصل الثالث

الشخصية والبحث الروحي

في السنوات الأخيرة من حياته، تعرض عبد المطلب، جد محمد ﷺ، إلى تقلص ثروته، وكان أبو طالب، الذي أصبح الآن الوصي على حفيده، يمر هو أيضاً بأوضاع مالية وظروف تجارية بالغة الصعوبة، لذا أخذ محمد ﷺ يعمل ليكسب قوت يومه في وقت مبكر وكان يحاول دائماً مساعدة أفراد أسرته.

الراهب بحيرة

عندما بلغ محمد ﷺ الثانية عشرة من العمر، قرر أبو طالب اصطحابه معه في قافلة تجارة متوجهة إلى بلاد الشام، وقد توقفوا في بصرى، قرب صومعة ناسك نصراني اسمه بحيرة، ورد في الأثر أن الناسك بحيرة، مثله مثل ورقة بن نوفل والغالبية العظمى من النصارى واليهود والحنفاء في شبه الجزيرة، ينتظرون مجيء نبي جديد وكان يترقب دائماً علامات ذلك⁽¹⁾.

فعندما رأى بحيرة اقتراب القافلة، بدا له أن سحابة كانت تسير مع المجموعة تظللهم من حر الشمس، وقد أراد أن يعرف المزيد عن هذه الظاهرة، فقرر أن يدعو جميع أفراد القافلة إلى تناول الطعام، وهو أمر

غير عادي لدى نساك تلك المنطقة، وبعد مراقبة أفراد المجموعة بعناية، ثبت نظرته على محمد الصغير، وذهب إليه وانتحى به جانباً وطرح عليه عدداً من الأسئلة عن وضعه العائلي ومركزه الاجتماعي وأحلامه، إلى ما هنالك.

ثم سأل إن كان بإمكانه إلقاء نظرة على ظهره، فوافق محمد ﷺ ورأى الراهب بحيرة بين كتفي الصبي كتلة جلدية كانت تسمى في كتبه «خاتم النبوة»⁽²⁾ وسارع الراهب إلى تحذير أبي طالب بأنه سيكون لهذا الصبي شأن مهم وأن عليه حمايته من المحن ومن الاعتداءات التي سيتعرض لها، شأنه في ذلك شأن رسل الله السابقين.

لقد رأينا أن السنوات الأولى من حياة محمد ﷺ كانت حافلة بالعديد من العلامات، فجميع الذين كانوا حوله كانوا يشعرون بأن هذا الطفل كان مختلفاً وأنه سيكون له شأن عظيم، وقد أكد الراهب بحيرة هذا الانطباع وأضافه إلى تاريخ النبوة المقدس، وقد قيل للصبي وهو في الثانية عشرة من العمر، وهو الذي كان محبوباً لدى الجميع، أن من حوله سوف يعارضونه؛ وفي حين أنه كان يشعر أن تفرد جعل الناس يحبونه، إلا أنه أصبح يعرف الآن أن ذلك سيؤدي في المستقبل إلى كراهيتهم له.

ظل محمد ﷺ عدة سنوات يرعى الغنم في التلال المحيطة بمكة، ورغم صغر سنه وبعده عن الحياة العامة نوعاً ما لسكان مكة من الحضر، فقد كان في بعض الأحيان يسمع أو يشاهد المنازعات والصراعات المتواصلة بين مختلف القبائل، الأمر الذي كان يؤدي إلى تحالفات متغيرة لا تتوقف، ففي مكة، كانت الحرب بين العشائر هي القاعدة لا الشواذ، وكان البعض

يستغلون ذلك بأن يعاملوا معاملة بعيدة عن العدل والإنصاف التجار والزوار الذين كانوا يعلمون أنه لم يكن لهم أي معاهدة أو اتفاقية تحميهم وليس بإمكانهم الاعتماد على أي تحالف. هذا ما حدث لتاجر زائر من اليمن. فقد تعرض إلى الظلم، لكنه قرر ألا يجعل ذلك يمر دون أن يفعل شيئاً ما. لذا فقد شكى أمره صائحاً بأعلى صوته، محتكماً لشرف قبيلة قريش ومنزلتها الرفيعة، لأن ينصفوه⁽³⁾.

حلف الفضول

عزم عبد الله بن جدعان، شيخ قبيلة تيم وأحد أعضاء حلفي مكة الكبيرين وأهل المطيبين، على أن يدعو إلى بيته أولئك الذين كانوا يريدون أن يضعوا حداً للصراعات ويقيموا تحالف شرف وعدالة يربط القبائل بحيث يتجاوزون التحالفات التي تقوم على أساس المصالح القبلية أو السياسية أو التجارية.

وقد تعاقد وتعاهد رؤساء وأفراد العديد من القبائل على ألا يجدوا بمكة مظلوماً من أهل مكة وغيرهم ممن دخلها من سائر الناس إلا قاموا معه وكانوا على من ظلمه حتى ترد عليه مظلّمته، كان هذا الحلف الذي سمته قريش «حلف الفضول» ذا سمة خاصة من حيث إنه وضع احترام مبدأ العدل ونصرة المظلوم فوق كل اعتبار من اعتبارات القرابة أو القوة. وقد شارك محمد ﷺ الشاب، وكذا أبو بكر ﷺ، الذي أصبح لاحقاً صديق عمره، في هذا الاجتماع التاريخي.

بعد مدة من بداية الوحي، كان محمد ﷺ يذكر شروط الحلف ويقول: «لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفاً ما أحب أن لي به حمر

النعم، ولو ادعى به في الإسلام لأجبت»⁽⁴⁾. فالنبي لم يؤكد على علو شأن شروط الحلف المختلف عن التحالفات القبلية الفاسدة التي كانت سائدة في ذلك الزمن، بل أضاف بأنه رغم كونه يحمل رسالة الإسلام - وحتى كمسلم - فإنه كان لا يزال يقبل جوهره ولا يتردد في المشاركة فيه. هذا القول له مغزى خاص بالنسبة للمسلمين، ويمكن استخلاص ثلاثة دروس منه، لقد رأينا أنه كان قد طلب من النبي ﷺ الاستفادة من ماضيه، لكن التفكير هنا يتجاوز ذلك، محمد ﷺ يعترف بحلف أقيم قبل بداية الوحي وتعهّد بالدفاع عن العدالة بقوة ومعارضة الظلم الذي يلحق بالمعوزين والعاجزين، وهذا اعتراف بأن عملية وضع هذه المبادئ سابقة للإسلام وتتجاوزها، لأن الإسلام ورسائله جاء في واقع الأمر لتأكيد جوهر معاهدة سبق للضمير الإنساني صياغتها بمعزل عن الدين، هنا يعترف النبي ﷺ بوضوح بصلاحيّة مبدأ للعدالة والدفاع عن المضطهدين ثم النص عليه في حلف يعود إلى فترة ما قبل الإسلام.

والدرس الثاني لا يقل أهمية: ففي وقت كانت فيه الرسالة لا تزال تتكامل خلال مجرى الوحي وتجارب النبي ﷺ فإنه قد اعترف بصلاحيّة حلف أقامه أناس غير مسلمين ينشدون العدالة والصالح العام لمجتمعهم، إن قول النبي ﷺ هو بحد ذاته إنكار صريح للمنحى الفكري الذي يجري التعبير عنه هنا وهناك في تاريخ الفكر الإسلامي - ولغاية اليوم - والذي لا يمكن بموجبه لعهد أن يكون صالحاً من الناحية الأخلاقية إلا إذا كان ذا طبيعة إسلامية صرفة أو إذا قام بين المسلمين. وأكرر مرة ثانية أن النقطة الأساسية هي أن النبي ﷺ يعترف بوضوح بصلاحيّة الالتزام، بمبادئ

العدالة والدفاع عن المضطهدين، بصرف النظر عما إذا كان مصدر تلك المبادئ من داخل الإسلام أو من خارجه.

الدرس الثالث هو نتيجة مباشرة لهذا التفكير: إن رسالة الإسلام ليست -بأي حال- نظاماً مغلقاً للقيم، يختلف أو يتعارض مع الأنظمة الأخرى للقيم، فمنذ البداية، لم يكن النبي ﷺ يتصور أن محتوى رسالته هو تعبير عن الموقف الصرف من الآخر مقابل ما كان يصدر عن العرب أو المجتمعات الأخرى في زمنه، فالإسلام لا يقيم عالماً مغلقاً للمرجعية بل يعتمد على مجموعة من المبادئ الشمولية التي يمكن أن تتطابق مع أسس وقيم معتقدات أخرى وتقاليد دينية (حتى تلك الناتجة عن مجتمع يؤمن بتعدد الآلهة مثل مجتمع مكة في ذلك الوقت). الإسلام هو رسالة عدالة يترتب عليها مقاومة الاضطهاد وحماية كرامة المضطهدين والفقراء، ويتعين على المسلمين الاعتراف بالقيمة الأخلاقية لقانون أو عقد ينص على ذلك الشرط، بصرف النظر عن الذين يضعونه وعن المجتمع الصادر عنه، أكان مسلماً أو غير مسلم، وبدلاً من إنشاء الولاء لإسلام يكون فيه الاعتراف والولاء محصوراً في مجتمع الدين، فقد سعى النبي ﷺ إلى تطوير ضمير المؤمن عبر الالتزام بمبادئ تتجاوز التحالفات المغلقة باسم ولأولي للمبادئ الشمولية ذاتها، هذا الدرس الثالث لا ينطوي على أي شيء جديد للتأكيد على مبادئ الكرامة الإنسانية والعدالة والمساواة: بل إنه يستدعيها ويؤكد عليها. وفيما يتعلق بالقيم الأخلاقية، هذا الموقف ذاته يظهر حين يتحدث النبي ﷺ عن صفات الأفراد قبل الإسلام وفي كنف الإسلام: «خياركم (فيما يخص صفاتهم البشرية والأخلاقية) في

الجاهلية خياركم في الإسلام؛ إذا فقهوا»⁽⁵⁾. إن القيمة الأخلاقية للإنسان تتجاوز كثيراً الانتماء إلى عالم خاص من المرجعية. وهي في الإسلام تقتضي المزيد من المعرفة والفهم كيما تدرك بشكل صحيح ما يؤكد الإسلام (مبدأ العدالة) وما يطالب بوجوب إصلاحه (جميع أشكال عبادة الأوثان).

«الأمين» والزواج

تبين حياة النبي ﷺ ذاتها، قبل بداية الوحي وبعده، ما يمت به التحليل أنف الذكر من صلة بالموضوع: إدراك بأن صفاته الأخلاقية سبقت بعثته النبوية، الأمر الذي أكد استدلالياً على الحاجة لتلك الصفات، فبعد أن كان محمد ﷺ الشاب راعياً، أصبح تاجراً وبنى لنفسه سمعة بالأمانة والبراعة اعترف بها جميع أهل المنطقة، فقد أخذ الناس يطلقون عليه اسم «الصادق الأمين»، عندما كان لا يتجاوز سن العشرين، وكان من بين أغنى التجار في مكة امرأة اسمها خديجة بنت خويلد - رضي الله عنها - كانت قد تزوجت مرتين، ثم أصبحت أرملة، وهي ابنة عم ورقة بن نوفل النصراني، كانت قد سمعت منذ عدة سنوات عن شاب «صادق ومنصف وبارع» فقررت اختباراه فطلبت منه حمل بعض بضائعها إلى بلاد الشام ليبيعهها هناك، وأرسلت معه خادماً شاباً يعمل لديها اسمه ميسرة، ووعدت بمضاعفة عمولته إذا نجح، فقبل وانطلق مع ميسرة. في بلاد الشام أبرم محمد ﷺ صفقة فاقت ضعفي ما كانت خديجة تتوقعه.

وعادا لينبأ خديجة - رضي الله عنها -، التي أصغت بصمت إلى ما رواه لها محمد ﷺ وكانت تراقب ملياً مظهر وسلوك الشاب الذي كان

في ذلك الوقت في الخامسة والعشرين من العمر تقريباً، كان ينبعث من وجهه نور على ما يبدو. ثم أخبرها ميسرة أنه كان يلاحظ طيلة الرحلة سلسلة من العلامات في تصرفات محمد ﷺ وسلوكه - مما يدل على أنه لم يكن كغيره من الرجال⁽⁶⁾. ثم طلبت خديجة - رضي الله عنها - من إحدى صديقاتها نفيسة أن تسأل محمداً ﷺ إن كان يرغب في الزواج. فقال محمد ﷺ لنفيسة أن ما بيده ما يتزوج به، وعندما ذكرت اسم خديجة - رضي الله عنها - التي سيجد عندها «الجمال والنسب والشرف والمال»، أجاب بالقبول لكنه بسبب وضعه لا يسعه تصور هذا الزواج. ولم تقل له نفيسة بأنها كانت تتصرف بناء على طلب خديجة - رضي الله عنها - وقالت له أن يترك الأمر لها وأن بوسعها تدير هذا الزواج. وأخبرت خديجة - رضي الله عنها - بما كان يدور في ذهن محمد ﷺ. فدعته خديجة - رضي الله عنها - إلى بيتها وعرضت عليه الزواج، فقبل. بقيت مسألة التحديث إلى الأقارب في العشرينين من أجل إتمام الترتيبات، لكن لم يكن يوجد أي عقبة - سواء من حيث مركز كل منهما أو من حيث مصالح القبيلتين - يمكن أن تحول دون زواجهما.

جاء في الأثر أن خديجة - رضي الله عنها - كانت في الأربعين من العمر عند زواجهما لكن ثمة من يقول بأنها كانت أصغر من ذلك: على سبيل المثال، يذكر عبد الله بن مسعود رضي الله عنه بأن عمرها كان ثمانية وعشرين عاماً، وهو الأكثر احتمالاً على ما يبدو بالنظر لأن خديجة أنجبت ستة أطفال في السنوات التالية⁽⁷⁾. وقد عاش بكرها، وهو غلام سمي «قاسم»، سنتين فقط. ثم ولدت زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة، وأخيراً عبد الله، الذي توفى أيضاً قبل بلوغ السنتين من العمر⁽⁸⁾. في هذه

الأثناء قرر محمد ﷺ تحرير وتبني مولاه زيد بن حارثة الذي أهدته له زوجته خديجة - رضي الله عنها - قبل بضع سنوات.

وبعد وفاة ابنه عبد الله سعى لمساعدة عمه أبي طالب - الذي كان يعاني من صعوبات مالية كبيرة ويحمل عبء أسرة كبيرة جداً - بأن يأخذ ابن عمه علي بن أبي طالب إلى بيته. وسوف يتزوج علي ﷺ لاحقاً فاطمة، صغرى بنات محمد ﷺ.

زيد

إن لقصة زيد ﷺ، الابن المتبنى، أهمية لعدة أسباب، فقد أسرى في معركة وبيع عدة مرات قبل أن يصبح مولى لخديجة - رضي الله عنها - ثم مولى لمحمد ﷺ. وقد بقي في خدمة محمد ﷺ عدة سنوات، عرف خلالها أن أبويه كانا لا يزالان على قيد الحياة، حيث كان الناس يتناقلون الأنباء من قبيلة إلى أخرى من خلال الأشعار التي كان ينقلها التجار والمسافرون في تنقلهم من قرية إلى قرية، فقام زيد ﷺ بنظم بعض الأشعار وعمل على أن يسمعها عدة أفراد من قبيلته الذين كانوا يأتون إلى مكة ويوصلوها لأسرته، لدى سماع والده أنه كان في مكة قرر هو وعمه التوجه إلى مكة على الفور بغية العثور على زيد ﷺ والعودة به إلى قبيلته. فسمعاً أنه لدى محمد ﷺ فجاء إليه وعرضاً شراءه. فاقترح محمد ﷺ بدوره أن يترك الأمر لزيد ﷺ ليختار بنفسه: فإذا قرر العودة مع أبيه وعمه، فإن محمد ﷺ سيخلي سبيله دون أن يطلب أي تعويض، وإذا كان الأمر على العكس من ذلك وأراد زيداً ﷺ البقاء مع سيده، فإن على أهله قبول قراره، تم الاتفاق وذهبوا معاً. ليسألوا زيداً ﷺ عن رغبته، فقرر البقاء

مع سيده وأوضح لأهله بأنه يفضل الرق لدى محمد ﷺ على الحرية بعيداً عنه، تلك كانت الصفات التي وجدها فيه بحيث إنها فاقت ما يمكن أن يتوقعه لدى الآخرين، لذا فقد بقي مع سيده، الذي قام على الفور بعقته وأعلن على الملأ أن زيداً ﷺ يُعد منذ ذلك الوقت ابناً له، وأنه سيدعى زيد بن محمد وأنه سيرثه⁽⁹⁾.

هذه القصة - اختيار زيد ﷺ، حين كان لا يزال عبداً لسيده وتفضيله على أبيه - يضيف بعداً آخر إلى صورة محمد ﷺ التي كانت تظهر بالتدريج، وتبين الشيء الكثير عن شخصية محمد ﷺ قبل الوحي. فهي شخصية بسيطة، مولعة بالتأمل، دمثة، وصديقة أيضاً بارعة في التجارة، وتظهر احتراماً دائماً نحو جميع النساء والرجال والأطفال، وهم بدورهم كانوا يظهرون له الامتنان والمحبة الشديدة، كان الصادق وعند كلمته. كان الأمين والشخص الذي يعتمد عليه والمحفوف بالوقار، وكانت تحيط به العلامات التي تقصص عن شأنه، كان يتمتع بصفات إنسانية خارقة تشير إلى تفرد.

إعادة بناء الكعبة

ثمة حدث آخر يدل على أنه علاوة على مزاياه القلبية وتميزه الأخلاقي يجب إضافة صفة الذكاء الحاد، الذي كان يستخدمه في خدمة إشاعة الاحترام والسلام بين الناس وبين العشائر، بعد ممانعة طويلة الأمد من جانب قريش بسبب الحظر على المس بالبيت الحرام. قررت قريش أخيراً إعادة بناء الكعبة، فقاموا بهدم الجزء العلوي من الجدران، حتى بلغوا الأساسات (التي كانت تعود إلى أول بناء قام به إبراهيم وإسماعيل، والتي

تركوها دون أن يسموها). قاموا بإعادة البناء إلى أن وصلوا إلى المكان الذي يجب وضع الحجر الأسود فيه، في إحدى زوايا الكعبة، عند ذلك ثارت الشجارات بين أفراد العشائر المختلفة حول من سيكون له شرف إعادة الحجر الأسود إلى مكانه، وكانوا على وشك اللجوء إلى السلاح لتقرير أي عشيرة سيكون لها الشرف في ذلك. واقترح رجل مسن من بينهم بأن يطلب إلى أول رجل يدخل البيت الحرام أن يفصل في القضية، وتم التوافق على تلك الفكرة، كان محمد ﷺ أول الداخلين البيت الحرام وشعر كبار العشائر بالسعادة لاختيار الصدفة له للبت في النزاع، فأصغى إليهم ثم طلب عباءة ووضع الحجر الأسود عليها وطلب من رؤساء كل عشيرة الإمساك بأطراف العباءة ورفع الحجر معاً. وعندما رفعوه إلى الارتفاع المطلوب قام هو ذاته بوضع الحجر الأسود في المكان المطلوب - الأمر الذي أرضى الجميع، لأنه لم يظلم أي منهم. هذا الذكاء والحدس استطاع التوفيق بين كبرياء كل عشيرة وحاجتها للاتحاد، ولقد تجلت هذه السمة المميزة لعقله، لاحقاً، أثناء بعثته، في مقدرته على المحافظة على وحدة المجتمع الإسلامي الأول رغم وجود شخصيات بالغة القوة وذات أمزجة مختلفة إلى حد بعيد، ففي سعيه وراء السلام، كان دائماً يسعى إلى أن يحقق ثمانية ما كان قد فعله في هذا الوضع الصعب بين عشائر قريش: تعليم القلب عدم الخضوع للعواطف المتكبرة والتفكير المتعطرس، وإيصال العقل إلى حلول يرتاح إليها القلب مما يمكن من ضبط النفس بلطف وحكمة، ففي السنوات السابقة للوحي كان رب الرسول ﷺ قد أنعم عليه بهذه الصفة الخاصة أي الجمع بين قلب كبير وروح نفاذة، بين معرفة كيفية تحقيق ما هو معقول في جميع الظروف، مع الذات ولدى الناس الآخرين.

وعندما بلغ محمد ﷺ سن الخامسة والثلاثين، كان قد بنى لنفسه سمعة بحيث أن الكثيرين من بني هاشم كانوا يعتقدون بأن رداء أجداده سيؤول إليه ويعيد العظمة إلى عشيرته بأن يصبح زعيمها، فاستناداً إلى زواجه وأنشطته وصفاته الشخصية أصبح ذا مكانة بارزة سياسياً ومالياً، وأصبح يتلقى طلبات الكثيرين للزواج من بناته، كما حدث مع عمه أبي لهب الذي رغب بأن يزوج ولديه، عتبة وعتيبة، من رقية وأم كلثوم، وهكذا فقد جرت حياكة صلات عشائرية توقعاً للمزايا التي من شأنها أن تعود عليهم إذا ما أصبح محمد ﷺ زعيماً للعشيرة.

طلب الحقيقة

غير أن محمداً لم يكن ليهتم بتلك الأمور ولم يكن يهتم بالشؤون العامة، في هذا الوقت أخذ يقضي فترات من الاعتكاف في أحد كهوف مكة، مثلاً كان يعمل حفاء ونصارى مكة، وعند مجيء شهر رمضان، كان يذهب إلى غار حراء ومعه بعض المؤن ويظل في عزلة ويعود من حين لآخر من أجل التزود بالمزيد من الطعام، مدة تقارب الشهر، للوصول إلى ذلك الغار، كان عليه أن يتسلق جبلاً صغيراً ويذهب إلى الجانب الآخر من ذروة صغيرة أخرى ويتبع ممرّاً ضيقاً، وكان الغار ذاته منعزلاً وصغيراً جداً بحيث كان من الصعب على أكثر من اثنين أن يوجدوا فيه معاً، ومن فوهة الغار، كان يمكن رؤية الكعبة البعيدة في الأسفل، على مسافة أبعد، كان السهل القاحل يمتد على مرمى النظر.

كان محمد ﷺ يبحث عن السلام ومعنى الحياة، بعيداً عن الناس ولم يكن يشارك قبائل المنطقة في معتقداتها وطقوسها، وظل مترفعاً عن

الخرافة والأحكام المسبقة، كان في منأى عن الآلهة الزائفة، أكان ذلك في تقديس التماثيل أو عبادة السلطة والثروة، وكان قد سبق له أن قال لزوجته خديجة - رضي الله عنها - عن بعض الأحلام التي كانت تتحقق وكانت تزعجه بسبب الانطباع القوي الذي كانت تخلّفه عندما يستيقظ، لقد كان ذلك حقاً سعيّاً وراء الحقيقة: وبما أنه لم يكن يقتنع بالإجابات التي كان يقدمها من حوله، وانطلاقاً من اليقين الكامن في نفسه بوجوب إجراء المزيد من البحث، فقد قرر الانعزال بنفسه والتفرغ للتأمل، كان يقارب سن الأربعين وبلغ في تطوره الروحي مرحلة جعلت الاستبطان العميق فيها الخطوة التالية اللازمة، كان يفكر ويتأمل وحده في غار حراء في معنى الحياة ووجوده على الأرض والعلامات التي اقترنت به طيلة حياته، ولا بد من أن المساحات الممتدة حوله كانت تذكره بأفاق طفولته في الصحراء، مع فارق الآن وهو أن النضج قد ملأها بآلاف الأسئلة الوجودية الأساسية.

كان منهمكاً بالبحث، وهذا السعي الروحي كان يقوده بالطبع إلى المهمة التي كانت العلامات تشير إليها بشكل صامت وحتمي طيلة هذه الحياة، فالعلامات التي كانت تحميه وتبعث الهدوء في نفسه، والرؤى التي كانت تظهر في أول الأمر في الأحلام ثم تتحقق في عالم اليقظة، والأسئلة التي كانت تدور في الذهن والقلب مقترنة بالآفاق التي تطرحها الطبيعة، كانت كلها تقود محمداً ﷺ بشكل غير محسوس إلى الانخراط الأسمى في المعنى، إلى لقاء ربه، الله الواحد الأحد، ففي سن الأربعين كانت الدورة الأولى لحياته قد بلغت النهاية.

فقد حدث أنه عند اقترابه من غار حراء في شهر رمضان عام 610 أن سمع للمرة الأولى صوتاً يناديه ويحييه: «السلام عليك يا رسول الله»⁽¹⁰⁾.